تعريف بالكتاب

ڤرتر هو صورة من الصور الكثيرة التى يصور بها الشاعر الفيلسوف نفسه فى قصصه ، وأشهرها هذه الصورة للشاعر فى ضحوة العمر ، وصورتان أخريان احداهما هى صورة الدكتور فاوست ، وهى تمثل الشيخ الذى يساوم شـــيطان الشهوات بعد أفول العمر فى طلب المرفة والحقيقة ، والأخرى هى صورة ولهلم مايستر وهى تمثل الفنان فى أطوار تربيته الفنية والروحية من باكورة الصبا الى سن النضج والخبرة الصالحة .

ومن عادة الرواة أن يصوروا أنفسهم فى رواياتهم لأغراض شتى ، أهمهـا أن يتحـدثوا عن أنفسهم وراء ســـتار من الاسم القصصى المستعار ، ويغلب على صورة الفنان على هذا المثال أن تكون نسخة صادقة من صورته فى الحياة ، مع اعطاء الفن حقه من مجاراة الخيال وابراز بعض الملامح بأسلوب الرمز والكناية .

وغرض آخر يقصده الفنان من تمثيل نفسه فى قصته : وهو أن يطابق بين الشخصية القصصية وبين شخصيته هو كما تعيش فى حياتها الطبيعـــة فى كل شىء الا شيئا واحدا يحصل فى القصـــة ولا يحصل فى الحيـــاة ، وذلك أن يجعل الشخصية تصنع له ما لم يستطع أن يصنعه ، وما يغنيه عن صنعه فى الحياة الواقعية .

ومن هذا القبيل صور جيتى جميعا فى رواياته المختلفة ، وأولها صورة « ڤرتر » فى مقتبل الشباب .

فمن الواضح من مطالعة القصة فى صفحاتها الأولى على الخصوص أن الفتى ڤرتر هو الفتى جيتى بعينـــه ، وبخاصة حين يقول فى أولى

رسائله : « ما الانسان ؟ وكيف يجرؤ على مؤاخذة نفسه ؟ » أو حين يقول : « أريد أن أنعم بالحاضر وليذهب الماضى حيث ذهب » ، أو حين ينم عليه اعتقاده أن الانسان ألعوبة القدر ولا ينبغى له أن يطلب من الحياة الا ما تعطيه حين تعطيه .

ولكن جيتى — كما قلنا فى ترجمته — غير ڤرتر فى شىء واحد على الأقل : وهو أن ڤرتر انتحر ، وجيتى لم ينتحر ولا فكر فى الانتحار قط تفكير الجد والعزيمة ... نعم انه كان يحادث شارلوت وخطيبها فى البقاء والخلود ليلة الوداع التى فارقهما بعدها ، ونعم أنه حدثنا فى ترجمة حياته عن الخنجر الذى كان يصوبه الى صدره ليرى هل يسعه أو لا يسعه أن يدفعه قيراطين اثنين الى قلبه ، ولكننا نقرأ هذا الحديث فى ترجمته فنعرف على الأثر أنها تجربة فنية أخرى ، وأنه كان يفعل ذلك وكل ما فى ذهنه مثال العاهل العظيم « أوتو » الذى طعن نفسه بالخنجر بعد عشاء بهيج مع صحبه وحاشيته ، فهى تجربة تمثيل ومداعبة تخييل ، ولا يمكن أن تكون غير ذاك .

نعم ؛ لا يمكن أن ينتحر جيتى الا على هذه الصورة ، وهى صورة ڤرتر الذى خلقه ليؤدى عنه هذه التجربة ويريح ذهنه من التفكير الجدى فيها .

فليس أبعد عن مزاج المنتحر من مزاج جيتى الذى طبع على تعدد الجوانب وسعة الأفق الذى يحيط فى ضميره بكل شعور يربطه بالحياة .

انما يخطر الانتحار — جدا وفعلا — لانسان يمكن أن يتجه الى وجهة واحدة وأن يحصر أمانيه وعلاقاته النفسية فى رغبة واحدة ، اذا فاته أن يدركها يئس من الحياة كلها ، ووقر فى خلده أن الحياة كلها عبث ، وأن الدنيا كلها خلو من المعنى ، وخلو من الرغبات والمطالب التى تحتمل من أجلها أعباء البقاء .

وأين هذا من مزاج جيتى الذى يواجه الجهات الأربع الى غاية مداها فى كل فكرة تعرض له ، وفى كل شاغل من شواغل عقله وقلبه ووجـــدانه ؟ .

حسبنا أن نلقى النظرة العاجـــلة على شواغله العلمية وأذواقه الفنية ، لنعلم أن الدنيا عند هذه العبقرية الضافية لا تحصرها فكرة واحدة ولا رغبة واحدة ، ولا تتوقف على انسان واحد تعيش لأجله ، أو تفقد من أجله كل آمال الحياة .

لقد كان من شواغله الفـــكرية علم البصريات ، وعلم التشريح ، وعلم المعادن ، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الكيميا ، وعلم التشريع ، وعلم التنجيم .

وكان من مطالعاته الأدبية آداب الألمانية والفرنسية والانجليزية ، والفارسية والعبرية .

وكان تعدد الجوانب وراثة من وراثات أسرته وعادة من عادات أبيه وجـــده ، وكان جـــده يتشيع للنمسويين ، وأبوه يتشـــيع للبروسيين ، وبين ذلك ألوان من الشيع السياســـية والاجتماعية والعنصرية ، يستمع الى دعواتها وبراهينها وحججها فى طفولتـــه فلا يفوته عادة الاستماع الى وجوه الخلاف دون أن يندفع الى وجهة منها بالحب أو البغضاء ، وبالتصديق أو الانكار .

وتعلم فى المدرسة ، وفى الجامعة ، والثورة الفـــكرية قائمة بين تراث اليونان واللاتين ، وبين المجـــددين من المحدثين ، وبين النهضة القومية فى بلاد الجرمان ، والتقاليد الأوربية من جانب الفرنسيين والانجليز ، واستوعب ذلك كله بمزاجه المطبوع على التفتح لكل خاطر والاستماع الى كل رأى ، فـــكانت له من هـــذه الســـعة الفكرية ، والشعورية ، حصانة تحميه أن يعلق الحياة كلها بوجهة نظر أو علاقة غرام ، وتحميه ـ أكثر ما تحميه ـ من غواية الانتحار .

وعلى براعة جيتى الفنيـــة لم يستطع أن يخالف بين شخصية ثرتر وشخصيته هو كل المخالفة ، لأننا نقرأ رسائل ثرتر عن شارلوت فلا ندرى أيهما أغلب على نفسه وهو ينقل لنـــا أوصافها وأوصاف الربيع ومناظر الطبيعة من حولها : أكان يحب جمال شارلوت من أجل محاسن الطبيعة أم كان يحب محاسن الطبيعة من أجل جمال شـــارلوت ؟ .

ووصف لنا فى ترجمة حياته عاطفة الشباب اليائس قبل شعوره بالكارثة فكاد يجعلها منظرا من مناظر الفرجة على النيازك والأضواء وكاد يجعل الصاعقة فى انقضاضها زينة من زينات الشهب والنجوم ، فهى قذيفـــة تنير الظلام فى اندفاعهـــا الى السماء والتبـــاس أمرها على النظر بين شعاعها الباثق وشعاع النجوم ، ثم تهبط لامعة ساطعة الى الأرض ، فيذهب وقع الأصداء منها بوقع الهلاك والدمار .

ولو أننـــا تخيلنا الشخصيتين : شـــخصية ثرتر فى الرواية وشخصية جيتى فى الحياة ، ووضعناهما معا أمام هذا المنظر الرائع المروع ، لكان ثرتر وحـــده هو الذى يتلقى القذيفة على الأرض ، وكان جيتى على البعد هو الذى ينظر الى جمال القذيفة فى مصعدها ومهبطها ويغمض العين فى الختام عن موقعها الفاجع على الرغام .

وقد كتب « ماتسينى » — وهـــو من أكبر المعجبين بالشـــاعر الكبير — مقارنا بينه وبين معاصره بيرون فى حماسته وجماحه فقال : « وقفت يوما على قرية سويسرية أرقب العاصـــفة وهى تقترب وتؤذن بالهبوب . وفى السماء غيوم كثيفـــات سود تذهب حواشيها أشعة الأصيل ويطيقن سراعا على أصفى سماء فى جو أوربا ما عدا جو ايطاليا الجميل ، وكان الرعـــد يقصف من بعيد وأمواج الرياح القارسة تقذف بالمطر الغزير على السهل الظمىء ... وأنظر فوقى

فاذا بباز كبير من بزاة الألب يعلو تارة ويهبط تارة أخرى ، وهو العاصفة فى كبة الرياح الهوج كأنما كان يهجم عليها هجمة يفتحم القريع على القريع ، وكلما جلجل الرعد جد الطائر النبيل فى العلو كأنما يجيبه ويتحداه ، فظللت أتبعه بنظرى برهة حتى غاب فى ناحية الشرق عن العيان . ثم نظرت الى الأرض على نحو خمسين خطوة منى فاذا بالطائر أبى حديج قابع هناك على هيئة واستقرار بين حرب العناصر الزبون ، ورأيته مرتين أو ثلاثا يرفع رأسه قبل مهب الريح بهيئة لا توصف من الاستطلاع الضعيف وقلة الاكتراث . ثم أعرض عن هذا ورفع احدى ساقيه النحيلتين وزوى رأسه تحت جناحه وتهيأ للنعاس ... وذكرت بيرون وجيتى حين ذاك ، وذكرت حياة احدهما تموج بالزعازع ، وحياة الآخر تغمرها السكينة والسلام . وذكرت الينبوعين الزاخرين اللذين ختم عليهما واستنفدهما هذان الشاعران .. » .

ومثل ماتسينى من يرقب ذلك المشهد بين شاعرى الغرب فى عصره ، فيدرك أنه قائم فى موقفه بين ينبوعين زاخرين من الشعور .

فليس بيرون وحده بالينبوع الزاخر لأنه يصارع الرياح ، وليس جيتى وحده بالينبوع الناضب لأنه يغمض عنها عينيه ، وانما الفارق بينهما كالفارق بين الشراع الذى يواجه مهبا وحدا من مهاب الريح ، وبين الشراع الذى يطويه ملاحه لأنه يقابل كل مهب ويؤثر الاعراض عن كل ريح .

ويخطىء من يحسبها بلادة فى الشاعر الفيلسوف لأنه يسكن ولا يتحرك ، فربما كان السكون علامة على الشعور من كل جهة ، وحيلة النفس الأخيرة كلما تقابل شعور وشعور ، واضطربت البواعث من كل سبيل .

* * *

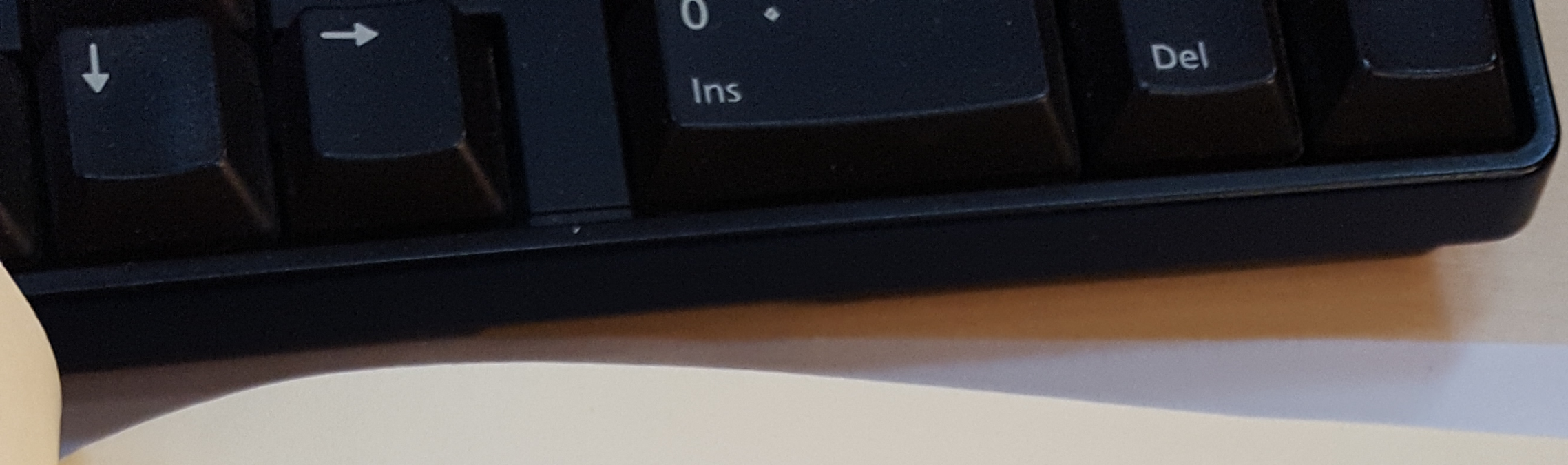

سـأل بريزون فيما يلى من حـوار : ما الذى كان يبكى عليه ڤرتر ؟ .

وأجابه روجرز : أظنه كان يبكى يا مستر بريزون لأنه يحب البكاء .

وعاد بريزون يسأل : الا تظن أن بكاءه لأنه كان يحب السيدة شارلوت التى كانت متزوجة من آخر ، أو على وشك الزواج من آخر ؟ .

فقال روجرز : أنا واثق أنه كان يحب شارلوت ، ولكنى أظنه لو لم يكن يحب شارلوت لبكى على كل حال .

ويصدق هذا على ڤرتر الذى خلقه جيتى ليبكى ، لأن البكاء محظور عليه .

وقد لقيه زائر غريب لأول مرة فقال وهو يطيل النظر الى وجهه : انه لوجه رجل طالما تألم .

فبادره جيتى معترضا : كلا . بل وجه رجل طالما صارع الألم . ان المتألم خاضع ...

أما مصارع الآلام ، فهو منا فى مقام النظير أمام النظير ، وربما انقضى الصراع وهو السيد المطاع .

وكان بيرون يقول : اننى أضحك لكيلا أبكى .

أما جيتى فلا يضحك ولا يبكى ، ولكنه يخلق جيتى الآخر الذى يبكى ما شاء ، ويبقى هو جيتى الأول الذى يصارع البكاء .

عباس محمود العقاد